مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 18 العدد01 2022/01/15

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الخطاب الصوفي ودوره في محاربة التطرف الديني

رؤية أنثروبولوجية دينية

Sufi discourse and its role in combating religious extremism
A religious anthropological vision

د. بوسماحة الطيب*

المدرسة العليا للأساتذة بشار –الجزائر–

bousmahatayeb08@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/10/20 تاريخ القبول: 2020/11/26

الملخص :

يعد الخطاب الصوفي أحد اهم الخطابات الدينية والفكرية التي تميزت بالعرفان والبحث عن الحقيقة في جوهر الانسان والعالم. و أن اهم ما اتسم به هذا الخطاب هو الدعوة الى التسامح بين جميع افراد المجتمع وبين جميع الطوائف والديانات. وهو ما يمثل أساسا لما يسمى بحوار الحضارات ونقاط التقاء الأديان باعتبار ان الدين في جوهره يعتمد على العبادة لله الواحد الذي شرعها عن طريق رسالة الأشياء. وانطلاقا من هذا جاء التصوف كخيار استراتيجي لمحاورة الاخر والدعوة الى السلام العالمي والتصالح المجتمعي وكل ذلك باعتبارات الإسلام رسالة عالمية موجهة لجميع الناس كافة وهذا في الخطاب الصوفي الذي من شانها ان تحقق السلم وتحارب التطرف والعنف الديني.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، الإنسان، الدين، الأنثروبولوجيا، السلام، التطرف.

Abstract:

The Sufi discourse is considered as one of the most important religious and intellectual discourses that was characterized by tolerance and the search for truth in the essence of the human being and the world. The most important feature of this discourse is the call for tolerance among all members of society and among all sects and religions. This represents the basis for the so-called dialogue of

* **المؤلف المرسل:** د. بوسماحة الطيب، **الايميل** : bousmahatayeb08@gmail.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

civilizations and the meeting points of religions, given that religion in its essence depends on worshiping the One God who instituted it through the message of things. Based on this, Sufism came as a strategic option for dialogue with the other and calling for world peace and societal tolerance, and all of that, given Islam's considerations, is a universal message addressed to all people, and this is in the Sufi discourse that would achieve peace and fight extremism and religious violence.
Keywords: discourse, human being, religion, anthropology, peace, extremism.

1 –تمهيد :

يعدّ الخطاب الصُّوفي من الخطابات المهمَّة التي عرفتها الثَّقافة العربية الإسلامية لما كان له من دور كبير وتأثير بليغ سواء على مستوى المجتمع أو الفكر أو الثَّقافة ، ولقد أوجد هذا الخطاب لنفسه حضورا قويًا عبر مراحل مختلفة من تاريخه على الرَّغم من الهجمات التي تعرض لها من طرف معارضيه و منكريه،«ولهذا نجد في المقابل من يمدح التَّصوف ويُعظمُه مَن يكون أسلوبه مجرد تشنيعا على المتصوفة،وتصيُّد الشطحاتهم وسقطاتهم،وطعنا فيهم يصل إلى التَّكفير في كثير من الأحيان **محمد بن الطيب، بيروت 2008، ص 66**، وهو الأسلوب الذي أدَّى إلى مآسي إنسانية وصلت إلى حدّ القتل كما فُعل بالحلاج.

ولقد اختلف الدَّارسون والباحثون في أصول التَّصوف، وبداياته وتعدَّدت في ذلك الآراء والمواقف، فأرجعه البعض إلى أهل الصُّفة والبعض الآخر إلى الصَّفاء، وهناك من امتدَّ به إلى ثقافات وديانات أُخر كالهنديةوالفارسية والغنُّوصية، والحقيقة أنّ سيَّرالمتصوّفةتشير إلى أنَّ التَّصوف «عمل شاقٌّ يهدف إلى تحرير الرّوح من الأغلال المادية والقيود الجسدية بعيدا عن المكان، وتخطى حاجز الزَّمان مُتَّجهة بنورها وحُبّها وشوقها إلى الله» **عبد الرزاق نوفل، بيروت، ص21**، وبذلك أصبح التَّصوف تجربة ذاتية تؤدي إلى معارف ذوقية وعلوم وهبية.

وعلى الرّغم من هذه الاختلافات،فإنّ القارئ المتفحّص في مؤلفات الصّوفية أنفسهم وبخاصة الأوائل منهم كالطّوسي في اللّمع، والقشيري في الرّسالة لا يجد في كلامهم حول موضوع نشأة التّصوف إلّا الكتاب والسّنة باعتبارهماالأصل والأساس للتّصوف، فالقشيري بعدما يصفهم بالصَّفوة والأخيار، وأنَّهم أهل الآداب والأنوار يبيّن أنَّ رسالته جاءت «غيرةً على أهل هذه الطَّريقة أن يُذكر أهلها بسوء أو يجد

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

مخالف لتَلبهم مساغا إذ البلوى في هذه الدّيار بالمخالفين لهذه الطَّريقة والمنكرين عليها شديدة» **القشيري عبد الكريم، بيروت،2001، ص37**، والإنكار على التَّصوف هو إنكار على مستوى معيَّن من الفهم في الدّين، وهو الفهم الذي تجاوز في الكثير من نصوصه ومقولاته الفهم الظاهري للدّين.

ولقد ردّ المتصوّفة في الكثير من كتاباتهم على الّذين يبعدون التصّوف عن رّوح الإسلام، وبخاصه أنّ بعض الرُّدود كانت تَنْسبهُم إلى الكفر والزّندقة والضّلال، ولا يزال هذا التيَّار متواصلا ضدَّ من يخالفه ممّا أسهم في ظهور تيار التَّطرُّف والكراهية والحقد بين المسلمين.

2-التَّصوف وروح الانتماء:

لقد أوجد القرن الرّابع الهجري مجموعة من المتصوّفة كرابعة العدوية والحلاج والبسطامي، وكان لهذه الأسماء في مقولاتهم الأثر القوي والبالغ في نفوس المتلقين سواء بالقبول والرّضى،أم بالرفض والإنكار.

1. ومن البيّن الواضح أنّ المقول الصوفي تميَّز بالغموض والتعقيد والاعتماد على لغة الإشارة والرّمز باعتباره تعبيرا عن تجربة روحية ذاتية يعيشها الصّوفي في علاقته مع ربّه، فتتجلَّى له المعارف والمشاهدات، فيصل إلى إدراك الحقائق على حسب صفاء قلبه ودرجة عروجه فلا يجد في ذلك العبارة المناسبة للتّعبير عن حقائقه، فيعبّر بما يملك في ذلك عن ذلك فيقع في الرّمز والغموض. وهذا من بين الأسباب التي دفعت المتصوّفة إلى محاولة التَّأليف في ربط التّصوف بالإسلام، والتأكيد على أنَّ أصله قرآني سنّي فمن ذلك ما أشار إليه الجيلي حيث بيَّن أنّ علم القوم كلّه مستمدّ من الكتاب والسنّة فقال في ذلك: «اعلم أنيّ ما وضعت شيئا في هذا الكتاب إلّا وهو مؤيّد بكتاب اللهأو بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنَّه إذا لاح لك شيء في كلامي بخلاف الكتاب والسنَّة فليعلم أنّ ذلك من حيث مفهومه لا من حيث مرادي الذي وضعت الكـــــلام لأجله » **الجيلي عبدالكريم ، بيروت 1997 ص11**. ،فهو بهذا التَّحديد المنجهيفي قراءة العرفان يشير إلى مستوى التَّلقي الذي قد يؤدي إلى عدم الفهم للمعاني العرفانية أو تحريفها إلى غير مقصدها ، وذلك لبعد مدرك هذا العلم عن العقول .

وأمَّا ابن عربي فقد بَيَّن أنَّ علـم العرفان الصُّـوفي علم ذوق ومُكاشَفة، وأنَّه نتيجة السُّلوك الرُّوحي الذي يتبعه الصُّوفي في سَيْره وسلوكه، وأنـَّه علْم تَمُجُّـهالعقول لأنَّـــه فوق طَـوْر العقلوالفـكر والنَّظـر

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وأنَّ العبارة تزيده استشكالاوغموضا«فإذا أخذته العبارة سَمُجَ واعتاص على الأفهام دَرْكُه وخَشُنَ وربَّما مجَّتة العقول الضَّعيفة التي لم تتوفر لتصريف حقيقتها التي جعل الله فيها من النَّظر والبحث » **ابن عربي محيي الدين، لبنان 1994،ص 167**، فالتَّعبير عن الحقائق العرفانية يبقى مجرد إشارات ورموز قد لا يفهمها مستوى العقل والفكر.

و بالعودة إلى تاريخ التَّصوف فهو عبارة عن بيئة تتميز بالاعتدال والتَّسامح ، فالمتصوف مُتَصالح مع ذاته ومع المجتمع ومع الآخر ومع الكون والعالمَ ، وأنَّ رؤيته للدّين رؤية منفتحة تَعْتَّد بالجانب الرُّوحي، وهو الشيء المشترك بين جميع البشر بل هو الشيء المبثوث في الموجودات كلّها والتي به تسبّح ربَّها ،﴿ وَإِنْ منْ شَيْء إِلَّا يُسَبّحُ بحَمْده **سورة الإسراء،الآية 44** ، فالموجودات كلُّها عابدة مسبحة مُقرَّة بالوحدانيةلخالقها، والإنسان هو الكائن الذي رُكّبَت فيه الشَّهوة التي قد تخرجه عن دائرة الكون العابد،فيقع في الغربة مع روح الكون، ويعيش الاستثناء المدمّر،فإن حقَّق عبوديته لخالقه انسجم مع الكون كلّه،وحقَّق وحدة الاتصال التي جعلها الله في كونه،والتي جعل كَمالَها في الإنسان الذي جُمعت فيه حقائق الكون كلّه،وهذا في حدّ ذاته يعدُّ مطلبا إنسانيا لأنَّ البشرية تحتاج إلى هذه الرُّوح الجامعة لجميع المخلوقات ذات المنبع الرُّوحي الواحد.

3–التَّصوف وصناعة الذَّات المسالمة :

من بين أهمّ القواعد التي ارتكز عليها الخطاب الصُّوفي ثنائية الشَّيخ والمريد، فالشَّيخ إنسان سلك طريق النُّور حتى وصل إلى إدراك الحقائق العرفانية فحصل له مقام التَّربية، وهو تربية المريدين في سَيْرهم وسلوكهم، وتزكية أخلاقهم والوصول بهم إلى ما يرفعهم «فإنّ قَبُولَ قلوب المشايخ للمريد أصدق شاهد لسعادته» **القشيري عبد الكريم،ص362** ، والمشيخة مطلوبة في كل العلوم الدُّنيوية والدّينية، وهي أشدُّ طلبا في العلم بالله، ولهذا أكدَّ عليها المتصوّفة، واعتبروا أنَّ التَّربية من غير شيخ لا يُعَوَّلُ عليها.

وعموم التَّربية الصُّوفية مبنيٌّ على سلوك التَّحلية والتَّخلية، والمقصود بها مجاهدة المريد نفسه كي تتخلَّى عن كل مذموم فيقع لها التَّحلي بكلّ محمود، وهو سلوك المجاهدة الذي أساسه قوله تعالى:﴿وَالَّذينَ جَاهَدُوا فينَا لَنَهْدينَّهُم سُبُلَنَا وَإنّ الله لَمَعَ المحْسنينَ **سورة العنكبوت،الآية69**، ومن هنا ركَّز المتصوّفة على ضرورة طاعة المريد للشيخ،وهي قاعدة صوفية من شأنها أن تبثَّ في قلب المريد روح الاتباع والبعد عن

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

المشاحنات والتّركيز على تزكية الذّات المؤمنة والمحبّة للخير لجميع النّاس وبخاصة المسلمين منهم، وهذا في حدّ ذاته من شأنه أن يرفع الذّات الإنسانية إلى التّطلّع إلى ماهو أرفع وأعلى وأنقى وأطهر،وهذهالمرتبة لا تعطي لصاحبها إلاّالشّعور بالمحبّة للآخرين وإفشاء السّلام بين المجتمعات ،ونبذ العنف والتّطرف بين الطوائف والدّول،لأنّ الصّلح مع الآخر يبدأ من الصُّلح مع الذّات،"فمدارس الشّيخ والمريد مدارس نموذجية نسيج وَحْدَها في الكوكب الأرضيإنّها لأكاديميات علمية يتلقّى الأساتذة فيها النُّور،ثم يفيضون بعلمهم وهداهم على مريدهم وأتباعهم على أنّ أساليب التّربيةومكارم الأخلاق هي أرقى ألوانالتربية في العالم منذ وجد العلم والتّعلم" **محمد عبد المنعم خفاجي،مصر ص 40**.

إنّتركيز الخطاب الصّوفي على مقام التّحلي والتّخلي ماهو في الحقيقة إلّا إنقاذٌ للذات الإنسانية من مهالكها ومساوئها وتعصُّباتها وأمراضها ، وما ذلك إلّا محاولة لجلب الإنسان إلى حقائقه التي من أهمّ صفاتها الوَسْعُ الإلاهي الذي جعله الله من أهم ما يجب أن يتخلّق به الإنسان في ذاته ومع الآخرين من جنسه،ومع المخلوقات من جنس العالم كلّه ولهذا أوصى ابن عربي بقوله:"وعُمَّ برحمتك وشفقتك جميع الحيوان والمخلوقين، ولا تقل هذا نبات وجماد ما عندهم خبر، فاترك الوجود على ما هو عليه وارحمه برحمة مُوجده في وجوده" **ابن عربي، ص296**، فالكمال الذي يصل إليه العارف كمال يقبل جميع الخلائق لأنّهم تجليات الحقّ سبحانه وتعالى،ولأنَّ العارف ينظر إلى وجود الله الذي أوجد الموجودات،فوجود الله هو الوجود الحقيقي الذي به وجد كلُّ موجود، ولهذا تكون همَّة العارف معرفة الوجود الذي أَوْجَدَ، وليس الوقوف عند المظاهر والمحسوسات وعندها يقع التّجاوز من الظاهر إلى الباطن، فيتحقَّق بالحقيقة المطلقة التي هي الله أصل الموجودات كلّها.

4–الرُّؤية الصُّوفية للإنسان ودورها في السّلم العالمي:

لقد احتلّ الإنسان مرتبةً كبيرةً وعالية في الخطاب الصّوفي فهو روح العالَم وعصارة الكون وزبدته ، وهو الخليفة لماله من مقام الأكملية في التّحقق بالأسماء الإلاهية، وهو المخلوق على الصّورة وهو الوحيد بين جميع الخلائق من فيه قابلية الكمال الإلاهي الأسمى،ولهذا كان حامل الأمانة التي ذكرها الله في قوله :﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا **سورة الأحزاب،الأية 72**.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

إنّ نظرة التّصوف للإنسان بهذا المفهوم المتعالي ما يدعو إلى إعادة النّظر في حقائق الإنسان الباطنية والرّوحية والتي من شأنها أن تحقّق وتصحّح نظرة التيارات الفكرية والمؤسسات الاقتصاديةوالسياسية إلى هذا الإنسان وبخاصة في الوقت الراهن أين سيطرت النَّظرة المادية والشَّهوانية فحوَّلت الإنسان مجرد مادة من غير روح .

ولقد ضَيَّقت الكثير من التّوجّهات الفكرية والدّينية وبخاصة في العالم الإسلامي من مفهوم الإنسان وجعلته إنسانا ضيّقَ الأفق بعيدا عن الرّوح العالمية للإسلام،ممَّا جعل الكثير من الأفراد ممّن ينتمون إلى الإسلام يقعون في العصبيَّة الدّينية والتّطرف المذهبي وتكفير المسلمين وتقزيمهم فرَقا وشيّعا،ولهذا حذّر المتصوّفة من هذا إذ«لايجوز لأيّ إنسان الرّكْض في هذا الميدان والتّكفير بالأوهام،والمضان دون تثبّت ويقين وعلم متين وإلّا اختلط سَيْلُها بالأبْطُح ولم يبق مسلم على وجه الأرض إلّا القليل » **محمد بن علوي المالكي، بيروت 2002،ص72**، وهو المنهج الذي يسير عكس الأمة الإسلامية التي من أهم خصائصها أن تكون أمة موحدَّة بالمحبَّة والرحمة والإيمان الحقيقي الذي يؤهلها لسماحة الدّين وإنسانيته.

إنّ الإنسان وإن كانت طينتة ترابية أرضية فهو في حقيقته نفخة سماوية إلاهية، وهي حقيقة موجودة في كلّ إنسان مهما كان لونه أو جنسه أو دينه، وهي المشترك المقدس بين جميع البشر فإن تسامي الإنسان وتعالى من أرضه إلى سمائه لعرف أنَّ الإنسان أخو الإنسان، وأنَّ الحياة الموهوبة له هي لاكتشاف حقائقه والوصول إلى تطلعاته، والمساهمة في إسعاد الآخرين.

إنَّحاجةالإنسان المعاصر إلى معرفة التَّصوف أَشَدُّ من أيّ وقت مضى، وبخاصة في ظلّ الصّراعات الدّولية واختصار الإنسان عند الكثير من الشركات الاقتصادية إلى كونه مجرد جسد ورغبة وشهوة، وهذا ما أدى بالكثير من المجتمعات أن تعيش القلق والحيرة وانتشار ظواهر الانتحار والقتل والاكتئاب والوساوس .

لقد كان الإنسان الأول آدم عليه السلام صورة وضعها الله للبشريةكي تعرف طريق الخير والشر، فالإنسان إذا سيطرت عليه شهواته وغلبته غرائزه وأهواءه كان يمثل الحيوانية التي تقتل الإنسان وتخرجه عن حقيقته وأصله، وهو ما أطلق عليه ابن عربي بالإنسان الحيوان' أمَّا إذا سما بأفعاله و زكا بأخلاقه وجال في عالم ملكوته كان هو الإنسان الكامل الذي بروحه يبقى العالَم،به تهتدي الإنسانية إلى أَمْنها وسعادتها، وإن بقي فيها وجه خوفها وشقائها،فذلك من طبيعة الحياة في هذه الدنيا .

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

لقد حظي الإنسان بصفته إنسانا بعيدا عن انتماءاته وجنسه ولونه ودينه حدا بالغ الأهمية جدير بأن تلتفت إليه النظريات السياسية والفكرية المعاصرة التي لها دور في صناعة القرار المحلي والدولي والإقليمي، وبخاصة منظمات حقوق الإنسان المختلفة ومنظمات التعاون الدولي وهيئات الأمم المتحدة، إن الإنسان في المنظور الصوفي على ما فيه من تنوع واختلاف سواء على المستوى الذاتي أو الاجتماعي يعد بؤرة العالم وخلاصته وجوهره وفضيلته، ولهذا وجب أن تحدد له الرؤية الواضحة والعميقة لما يجب أن يكون عليه وبخاصة في مستوى العلاقات بين الأفراد والجماعات والدول.

ولعل الرحلة الصوفية التي رسمها الصوفيون في مسيرة الإنسان الذي يبحث عن التألق والنقاء هي المحطة المصححة للكثير من الغلطات والانتكاسات التي عاشها الإنسان في تاريخه مع الإنسان ظلما وقتلا ودمارا ، وكان لغياب هذا المستوى من الوعي بحقيقة الإنسان في تعايشه مع الآخر هو في الحقيقة غياب لوعي الإنسان بذاته ودواخله، إن هذه الذات الإنسانية لا يمكن لها أن تكون في جمعيتها مع الآخر في ظل العلاقات المتداخلة وحتى المتضاربة أن تتوحد في مسارها المتسالم والمتعايش إلا إذا حققت في ذاتها المفردة ذاك الوعي الداخلي الذي أساسه المشروع الصوفي المبني على نقاء السريرة وصفاء الروح في معانقة معاني السماء وتجليات الألوهية.

تعد العلاقة بين الشيخ و المريد،والمريدوإخوانه أحد المقومات الأساسية التي تولد في داخل الإنسان حقيقة الذات المسالمة،فالحقيقة التي وصل إليها العارف، و يريد أن يصنعها في المريد هي الهدف العظيم الذي يجعل في الإنسان مساحة للتأمل الباطني و اكتشاف عوالم الإنسان الحقيقة بعيدا عن التدين المزيف الذي يغرق صاحبه في الكراهية و التطرف و العناد،إنَّ أفضل ما يتعلمه المريد الصادق من شيخه العارف عبر تجربة ذوقية طويلة شاقة أنَّ الانسان لم يخلق إلَّا محبالأنه محبوب و طالبالأنَّه مطلوب، وهما وصفان منبعهما الذات الإلاهية الجامعة للحقائق كلها.

وهذه الحقيقة لا يمكن أن تتحقق إلَّا في الإنسان الكامل صاحب العروج الرُّوحي الذي يحمل في ذاته صفات الرحمة لجميع الناس، وهو ما أوضحه قول الله تعالى. وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين، فالإسلام دين جامع لأنه يخاطب الناس كافة، فلو فهم الآخر هذا المعنى القرآني، وفهم المسلم هذا المطلب العميق

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

من الإسلام لحمل الأول الشغف للوصول إلى هذه الحقيقة،ولحمل الثاني في ذاته بالمحبة الشغف لإيصال هذه الحقيقة.

5-المحبَّة ودورها في صناعة السّلم المجتمعي:

لقد اختصر المتصوِّفة الدّين في المحبَّة، و جعلوها المقام الذي تدور عليه جميع المقامات، و يرتكزون في ذلك على الأثر المشهور «كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق » **العجلوني إسماعل بن محمد، بيروت، 1985، ص173**، وهو حديث صحيح في نظر المتصوفة يُصَححُّه الكشف وإن ضَعَّفَه السَّنَد والرّواية .

إنَّ الخلق بتنوعاته مخلوق من محبَّة إلاهية مصدرُها الخالق، فبها خَلَقَ الأكوان وأَوْجَدَها، ولأجلها أَمرَهُم ونهاهم،ولهذا ربط النبي صلى الله عليه وسلـــم الإيمان بالمحبَّة فقال:«لايؤمن أحَدُكُم حتىَّأكونَأحبَّ إليه من وَلَدهووالدهوالنَّاس أجمعين » **مسلم، بيروت، ص4** ،ففي هذا الحديث إشارة واضحة إلى أنَّ المحبَّة شَرْط فيصحَّة الإيمان و كماله .

ولهذا نجد في القرآن الكريم نَفْيُ الإيمان عن الأعراب الذين لم تخالط قلوبهم المحبة في قوله تعالى :﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِـنْ قُولـُوا أَسْلَمْنَاوَلَمَّـا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ **سورة الحجرات، الآية 14**،بينمـا نَسَبَ الإيمان للصَّحابة في قوله تعالى:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ سورة الحجرات،الآية 10 ،لتعاملهم مع بعضهم البعض بالمحبَّة والأخوة، وهــو ما يشرحه قول النبي صلىالله عليه وسلم:«لايؤمن أَحَدُكُم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه » **مسلم، ص50**،ولهذا " فإن تجربة المحبَّة هاته المعاشة على المستوى الأرضي هي التي يمكنها أن تجعلنا ننفتحأكثرعلى الكونية » **خالد بن تونس، بيروت، 2005، ص 207** ،إنَّمسيرة الحبّ عند المتصوّفة مسيرة شاقة وطويلة تعيد الإنسان إلى الأصل الذي هو (يُحِبُّهُم) حتىَّ يتحقق فيهم (يُحِبُّونَهُ)،فالإنسان في أصله مخلوق محبوب خُلقَ من حُبّ وَطُلبَ منه حُبَّ من خلقه من حُب، والمحبَّة بهذا المفهوم العرفاني حقيقة وجودية وبممارستها على المستوى الكائن البشري يستطيع الإنسان أن يحبَّ أخاه الإنسان لأنَّه يشاركه في المحبَّة الأزلية وعندها يُصبُح الإنسان المحبَّ هو المصَحّح للبوصلة الخاطئة التي قتلت البشرية في تاريخ من الحقد والكراهية والحروب،« وخير مصداق على ذلك بحر الحبّ الذي وَزَّعَهُ العرب المسلمون جداولا وأنهارا على الدُّنيا كلّها عبر مسيرة العلم والوعي والحق والسَّلام

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

التي بسطوها على العالم القديم فأشادو أعظم حضارة حققت إنسانية الإنسان » **محمد الراشد، دمشق 2010، ص 43.**

إنَّ الحديث عن المحبَّة عند المتصوفة يؤدي إلى الحديث عن القلب،فهو حقيقة ملكوتية به يَتِمُّالحُبُّويَكْمُلُ وهو العرش الذي تتحقَّق به حقيقة الحقائق في الإنسان وهي العبودية الخالصة للخالق،«فالقلب عبارة عن النشأة الجامعة بين الحقائق الجسمانية، والقوى المزاجية وبين الحقائق الروحانية والحقائق النفسية، وهو جوهر برزخي له وجه إلى جميع الأطراف وله مقام المضاهاة» **ابن عربي، القاهرة 2007 ، ص129**، ولأنه كذلك وجب مراقبته والعناية به، وتطهيره من جميع الأمراض وبخاصة الحقد والحسد والكراهية والنفاق، وهي الأخلاق التي أدت بالبشرية منذ بدايتها إلى يومنا هذا إلى كلّ تلك المحن والفتن وهي الأخلاق التي تأسست من أجل محاربتها المدارس الصوفية، وما ذلك إلا لتحقيق السعادة للإنسان في الدنيا بالعلاقة الطيبة مع الآخرين، وفي الآخرة للسكنى في الجنة مع قادة الخير والصلاح والإيمان

ولقد ألف الغزالي إحياءه في جزء كبير منه لإبراز هذا الجانب من حقائق القلب فشرح المهلكات والمنجيات فنَبَّه إلى خطورة القلب إذا ابتعد عن الحقيقة الملكوتية التي خلق من أجلها والتي اذا تحققت في أفراد النَّاس سادت بينهم المحبَّة والسَّلام والأمن والاطمئنان، أمَّا إذا تحقق العكس فإنَّالبشرية تدخل في عوالم الويلات والحروب والفتن والمحن ولهذا اهتم المتصوفة بإنشاء المدارس والزوايا لجلب النَّاس إلى البيئة الدينية السمحة حيث يركزون على قراءة القرآن، وتلاوة الذّكر وإطعام الطعام فيتحقق بينهمالتواددوالتراحم،ولقدقبلوا في مدارسهم الآخرين ممن لاينتمون إلى مذاهبهم بحسن المعاملة مما جعل الكثيرين من الآخرين يستعدُّون لقَبول الإسلاموالإيمانبه نتيجة التَّسامح والتَّعاطف الذي وجدوه في مشايخ التَّصوف ومُريديه، فلقد صَرَّح الباحث سكوط كوغل إلى « أنَّ نموذج الشَّيخ الأميركي حمزة يوسف هانز أحد النَّماذج فقط لتوضيح كيف أنَّ شخصية زروق ومثالياته هي عناصر حاسمة في هذا المشروع الإصلاحي الممتد في الممارسة الصُّوفية وفي الولاء الإسلامي المعتدل وغير المتعصّب » **عزيز الكبيطي، بيروت، 2013،ص286**، فالتسامح الصُّوفي يعدُّ القوَّة الكبيرة للإسلام باعتباره رسالة عالمية لابدَّ أن

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

تصل حقيقتها إلى النَّاس أجمعين وهذه القوَّة هيالتي تحقَّقت تجلياتها في الكثير من البلدان التي دخلها الإسلام من باب التَّصوف.

6-المعرفة الصُّوفية وأثرها في التَّعايش السّلمي بين الأمم:

لقد اهتزت السَّماء منذ قطرة الدَّم الأولى التي سالت على الأرض على يد الإنسان ضد الإنسان،فأعلنت أن قتل الإنسان الواحد كقتل النَّاس جميعا قال الله تعالى:﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا **سورة المائدة،الآية 32** ،وهي إشارة قرآنية إلى ضرورة احترام الإنسان لأخيه الإنسان، وتقديس الرُّوح المجودة فيه وتمجيد البدن الذي حمل هذه الرُّوح، فلا يجب هدمه أوتشويهه، فالإنسان مطلوب منه معرفة حقائقه التي أودعها الله فيه، وأنَّ الموجودات كلَّها دونه في المرتبة«ومن ثمَّ كان الإنسان أصلا للعالَم، وكان هو المقصود من الوجود، فالعالَم كلُّه مسخَّر للإنسان مخلوق من أجله، والإنسان هو الأصل في ذلك، ولا اعتبار بخلق السَّموات والأرض والملائكة قبل خلق الإنسان، فإنَّما جرت سنَّة الله بذلك أن يخلق الشَّجرة قبل الثَّمرة، والثَّمرة هي المقصودة من الشَّجرة» **الجيلي عبد الكريم، بيروت، 2004، ص165.**

إنَّ الإنسان في ماهيته مَدعُوٌّ إلى اكتساب العلم والمعرفة ،ولقد ربط المتصوفة المعرفة بالإنسان ارتباطا وثيقا وجعلوه محور العملية المعرفية ،ولهم في ذلك استشهادات وأدلة كثيرة منها الأثر المشهور عندهم«من عرف نفسه عرف ربَّه» **ابن عربي، ص174** إن معرفة الإنسان لذاته هي طريق معرفته لربه فالحقائق الكبرى والكلية موجودة داخل الإنسان،وهو المظهر الأكمل لهذه المعرفة لما فيه من القابلية لإدراك الحقائق،والمعرفة في الخطاب الصُّوفي معرفة متنامية باعتبارها ثمرة السُّلوك والمجاهدة ، والذكر والخلوة ، وهي في كلّ مرة تزداد وتتَّسع على حسب قلب السَّالك ودرجة تعلقه وثباته، ومحل هذه المعرفة القلب لا العقل والتفرغ والتَّهيُّؤ لا الفكر والنَّظر والاستدلال،وهي معرفة تنقل العارف من ظاهره إلى باطنه .

وبانتقال العارف إلى درجة المعرفة الكاملة، وإدراكه لذاته في حقائقها يصبح قادرا على إدراك العالَم من حوله إدراكا صحيحا، فلا يتعصب لرأي ولا يتهجَّم على فكر، فالحقيقة عنده تقبل ذلك فيعذر المخطئ في أخطاءه والمقلد فيتقليده والإنسان كائن متنوع في كلّشئ ظاهرا وباطنا، فهو في معارفه على

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

حسب مستواه ودرجته وبيئته ومنهجه وخلفيته ومرجعيتهوإذا كان الإنسان فياكتساب المعرفة بهذا التنوع الذي قد يؤدي إلى الكثير من التَّضاد والتَّطاحن والتَّناطح،فإنَّالخطاب الصُّوفي في تنظيره للمعرفة يؤكد على ضرورة قبول الآخر في قناعاتهوأفكاره وتوجهاته، فالحقيقة القرآنية تؤكد أنَّه ﴿لَاإِكْرَاهَ فِي الدِّين **سورة البقرة،الآية 256** ،فمن باب أولى لا إكراه في الفكر والفهموالاقتناع .

إنَّ المعرفة السَّامية التي يسعى إليها المتصوف هي معرفة الله في أسماءه وصفاته، وكمالاته وهي المعرفة التي تُجسد في العارف معاني الوسع الإلاهي والرحمة الربانية فتتجلى فيه حقيقة الدين وحقائق الإسلام وروحانية الإيمان، وعبودية الإحسان فيصبح الآخر في نظره وجها من وجوه الحقيقة التي تقبل التضاد، فالله هو أولوأخر وظاهر وباطن ومعط ومانع، وهي حقائق متجلية في الوجود،ولهذا وجدت الجنة والنار والكافر والمؤمن والشقي والسعيد فلا بدَّ للورقة من صفحتين ولابدَّ للحقيقة من وجهين،ولقد بين ابن عربي شمول الرحمة على جميع الخلق في فتوحاته منكرا على من يُضَيقُّها على طائفة معينة فقال:«رأيت جماعة ممَّن يتنازعون في اتساع رحمة الله وأنها مقصورة على طائفة خاصة فحجروا وضيَّقوا ما وَسَّع الله فلو أنَّ الله لايرحم أحدا من خلقه لحرم رحمته من يقول بهذا ولكن أبى الله إلا شمول الرحمة، فمنا من يأخذها بطريق الوجوب ومنا من يأخذها بطريق الامتنان» **ابن عربي، ص72** ،ولأنَّ الشَّيخ الأكبر مُدرك وفاهم لهذه الحقيقة الرحمانية، فلقد تخلق بها تخلقا حقيقيا،وفي ذلك يقول :«والله ما أنا بحمد الله ممَّن يحب التَّشفي والانتقام من عبادالله، بل خلقني الله رحمة وجعلني وارث رحمة لمن قيل فيه﴿وما أرسلناك إلاَّ رحمة للعاملين **سورة الأنبياء الآية 107** ،إنَّ القلب المتحقّق بالمعرفة الصوفية من شأنه أن يكون مدركا لحقائق الأشياء والموجودات، عارفا بمراتبها وشؤونها فلا يكون هذا القلب إلَّا متسامحا ومحبًّا ومقدّرا لجميع الخلائق، ولهذا لانجد عند المتصوّفة الكبار التفاتا إلى منتقديهم لأنَّ همَّهم بذل الجهد للوصول إلى عالم الحقائق، فالوقت عزيز والعمر قصير.

ومن هنا كانت المحبة وكانت المعرفة مقامان عظيمان، كلُّ مقام يفضي للآخر،فالمحبةتنتج المعرفة، والمعرفة تعطي المحبة وبتحققهما في قلب العارف وبتجليهما على قلب المريد يسود الخير والعدل والمحبة والتسامح بينجميع أفراد المجتمع ويصبح المجتمع الإسلامي صورة نقية تعكس الإسلام الحقيقي في أبعاده

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

العالميةوروحانيته العالية، وهذا ما يفسّر انتشار الطُّرق الصُّوفية في العالم ودخول الكثير في الإسلام من باب التَّصوفوالعرفان، فالآخر غزته الحضارة المادية وجعلته يعيش غربة مع ذاته وقلقا في حياته.

7–العرفان الصُّوفي و إنقاذ العالم :

لقد تكالبت القوى الاستعمارية، والمؤسسات المالية والقوى السياسية النفعية على الإنسان وحوَّلت الأرض إلى مركز دمار وصراع، وقتل وفتن وعبر هذا المسار كانت الأمة العربية هي الأمة المستهدفة،وكانت الأرض العربية ميدانا رهيبا لبث السُّموم وخلق الأزمات .

ومن المؤسف أنَّ الكثير من المسلمين دولا وأفرادالم تنتبه إلى هذه الخطورة بل أسهمت في إنجاح هذه المخططات الرهيبة وأصبح الإرهاب العالمي تجسده أياد ضيقة الأفق من أبناء جلدتنا بعقول قوى خفية واسعة الحقد لهذه الأمة وهويَّتها ولعل هذا الخطأ الذي يقع فيه بعض المسلمين فيهدمون الأمة بدل إصلاحها،ظانين أنَّ فهمهم هو الدّين في حقيقته فظهرت طوائف بمرجعياتها المختلفة تدَّعى أنها تمثل الدّين الحقيقي، وتنفي كلَّ فهم يغايرها وهذا في الحقيقة مخالف للدّين في منهجه الصَّحيح .

إنَّ الدّين قضية فطرية في الإنسان جبل عليه في أساسه ولا يمكن للإنسان أن يعيش بلا دين،ولكنه الدّين الحقيقي الذي يجسد عالم الرُّوح والصَّفاء والنَّقاء وحلّ مشكلات النَّاس في أيّ زمان ومكان، ولهذا «فالإسلام دين يستجيب لكلّ مشاغل الإنسان المعاصر » **خالد بن تونس ، ص205**، وما هذا الدّين إلّاالعرفان الذي يعكس الحقائق العرفانية والوجودية، والتي تفهم الإنسان مهما كان هذا الإنسان في دائرة واحدة دائرة المحبَّة والسَّلام والأمن.

لقد بذل العارفون في طريقهم مراحل شاقَّة وطويلة معتمدين على مواصلة الاتصال الرُّوحي بين الخـالق والمخلوق والثَّبات على مراقبة الذَّات الإنسانية و تطهيرها حتى تصلح أن تكون محلًّا للتَّجلي الإلاهي، فيشعُّ فيها النُّور الإلاهي،وإذا عرفت البشرية هذا الطَّريق وآمنت به وسَّلَّمت قيادها لهؤلاء الذين تحقَّقت فيهم هذه الحقائق سَلمَتْ من كلّ خوف وتحققت لها كلّ إرادة وفشا بينها السّلم والأمن وقبلت الحقَّ وآمنت به، فهذه هي رسالة السَّماء وهؤلاء هم قادتها الّذين بهم تسعد البشرية وتهنأ على الرَّغم من كلّ الاختلافات الموجودة فيها، فقبول الاختلاف في حدّ ذاته طبيعة إنسانية﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ **سورة هود، الآية 118**.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

فالقرآن في هذا النَّص يعترف بالاختلاف ويقرُّه، ويؤكد أنَّ البشرية لا يمكن أن تكون أمَّة واحدة، فالتَّعدد والتَّنوع حتمية إلاهية وحقيقة واقعة يثبتها التَّاريخ ويؤكدها الواقع، وما ذلك إلاَّ قصد تحقيق الغنى الإنساني الذي يُكَّمل بعضه البعض فيعطي الفرصة للمجتمعات والأمم بأن تستفيد من منتوج وفكر وتجربة غيرها، فتتعلم قيمة الأخذ والعطاء في جوّ من التَّسامح والحب والإيثار بدل الصّراع والغزو والنَّهب، وإذا كان الميراث العلمي والفكري لأيّ أمة هو ملك لجميع الأمم من حقّها ان تستفيد منه وتتعلم، فإنَّ الميراث الرُّوحي للإسلام والذي جسَّده المتصوفة في سيرهم وأشاعوه في علومهم العرفانية ورؤاهم الإنسانية، هو المشترك المقدَّس الذي به تتَّحد البشرية وتَسْلَمْ.

لقد أكَّد العرفان الصُّوفي على مسألة الاختلاف والتَّنوع واعتبرها من مؤشّرات المعرفة بالله، وأنَّ الوجود مبنيٌّ عليها باعتباره تجليات الأسماء الإلاهية المتعدّدة، وأنَّ الوجود لا يمكن أن يكـــون فيه شيء مكـرَّر، فالوسع الإلاهي لا يقبل ذلك « فمن علم انَّ الاتّساع الإلاهي لا يقتضي أن يكون شيء في الوجود مكرَّرا، علم أنَّ التلوين هو الصَّحيح في الكون، فإنَّه دليل على السّعة الإلاهية، فمن لم يقف من نفسه ولا من غيره على اختلاف آثار الحقّ فيه في كلّ نفس فلا معرفة له بالله» **ابن عربي، ص234** ، وهذه المعرفة تعطي معرفة الواحد في الكثرة، وأنَّ التَّعدُّد الظاهر في العالم ما هو إلَّا تجلّيات الواحد، « فنحن كثيرون عن عين واحدة جلَّت وتعالت انتسبت إلينا إيجادا وانتسبنا إليها وجودا، فمن عرف نفسه خَلْقا عرف الحقَّ خالقا موجودا» **ابن عربي، ص234**

فهذه المعرفة تَصْنَعُ في قلب العارف قَبول جميع المخلوقات وإشاعة الخير على جميع البشر وإن تعددت معتقداتهم الدينية، والحفاظ على أموالهم وممتلكاتهم، ومن أمثلة ذلك مواقف الأمير عبد القادر الإنسانية في فتنة دمشق، حيث « بلغ عدد الَّذين أنقذهم الأمير من الموت والعذاب ممَّن التجأوا إلى داره، وقلعة المدينة نحو خمسة عشر ألف شخص، ولهذا فإنَّ كافة نصارى دمشق مدينون لهذا الأمير الَّذي قام بعمل إنسانيّ كبير» **عمار الطالبي، الجزائر، 1983، ص267** ، وهذا التَّصرُّف الإنسانيّ نابع من فهم عميق لدى الأمير للدّين الإسلامي، فالغيرة على الإسلام بالفهم الصَّحيح تؤدي إلى الوقوف مع المظلومين من المسلمين وغير المسلمين فأخذ الدّين بالجهل يشوّه الدّين ويحرّفه عن محجَّته البيضاء، وفي هذا أكدَّ الأمير «أنَّ الأديان وفي مقدّمتها الدّين الإسلامي أجلُّ وأقدس من أن يكون خنجر جهالة، أو معول

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

طيش، أو صرخات نذالة تدوي بها أفواه الحثالة من القوم ..أحذّركم أنْ تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا، أو يكون له عليكم سبيلا » **عمار الطالبي، الجزائر، 1983، ص266.**

إنَّ الأمير في هذه الصَّرخة المدويَّة يحذّر من خطورة الجهل في الخطاب الدّيني، وبخاصة الذي يدعو إلى الفتنة بين الأديان السَّماوية، فيؤدّي إلى الكراهية، فينعدم التَّسامح بين البشر، وتعيش الإنسانية في ويلات الحروب والاستعباد، وكلُّ ذلك باسم الدّين، بينما« المنطلق الأساسي لدى الإنسان المؤمن هو أنَّ النَّاس يتساوون في الإنسانية التي تعمُّهم أي التي تجمعهم، لكنَّهم يختلفون بأعمالهم التي يتقنونها، وبما يقدّمونه في خدمة الآخرين، وبذلك تكون قيمة الشَّرف مستمدَّة من العمل لا من النَّسب في الإسلام» **ماجد حمود، الجزائر، 2010، ص171** ،وهذا هو الذي جسَّده الأمير عبد القادر الجزائري في خدمة النَّصارى، فحقَّق بذلك حقيقة الدّين الإسلامي الذي يراعي حرمة الإنسان في بدنه ودمه وروحه ودينه.

وتعدُّ الرَّحمة الإنسانية من أهمّ ما يجب أن يتَّصف به الخطاب الدّيني، وهي كفيلة بأن تذيب الفوارق التي صنعها الخطاب الدّيني المتطرّف سواء داخل الدّين الواحد، أوبين الأديان المختلفة، وهو الخطاب الذي «يريد إزالة رحمة الله عن بعض عباده، وهو الذي يحجر رحمة الله التي وسعت كلَّ شيء، ولا يحجرها على نفسه، وصاحب هذه الصّفة لولا انَّ الله سبقت رحمتُه غَضَبَه لكان هذا الشَّخص ممَّن لا تناله رحمة الله أبدا» **ابن عربي، لبنان، 1994 ص140**، فالرحمة صفة إلاهية لجميع خلقه، والعارف بالله متَّصف بهذه الصّفة فلا ينظر إلى الخلق إلاَّ بعين الرحمة والشَّفقة، وهذا ما وجد عرفانا وسلوكا وعملا في سيَّر المتصوّفة، فقد أوصى ابن عربي في وصاياه ما نصه« فلا تعاد عباد الله بالإمكان، ولا بما ظهر على اللّسان، والذي ينبغي لك أن تكره فعله لا عينه والعَدوُّ لله إنَّما تكره عينه، ففرّق بين من تكره عينه وهو عدوُّ الله وبين من تكره فعله وهو المؤمن أو من تجهل خاتمته ممَّن ليس بمسلم في الوقت، فعامل عباد الله بالشَّفقة والرَّحمة، كما أنَّ الله يرزقهم على كفرهم وشركهم مع علمه بهم» **ابن عربي، لبنان، 1994 ص 295**، ولهذا اعتبر الخطاب الصُّوفي في الثَّقافة الإسلامية خير سفير للإسلام ينقل رحابة الدّين، وينشر المحبَّة والسَّلام بين النَّاس كافة، لأنَّه دين إنسانيّ جاء للبشرية جمعاء، وما التَّطرُّف الذي تتبنَّاه بعض الجهات الدّينية إلاَّ من سوء فهم لحقيقة الدّين، أومن سوء توجيه، أو من جهات تَكيدُ للإسلام لأنَّها تعرف أنَّ الإسلام هو حقيقة الدّين الذي يحمل حقائق الأديان السَّماوية كلّها كما أنَّ محمدًا صلى الله

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

عليه وسلّم هو النَّبي الَّذي تجسَّدت فيه قيم الخير والمحبَّة والسَّلام والرَّحمة، والاقتداء به في الأخلاق الباطنية هو ما يحقّق حقيقة الدّين في المسلم، فتتحقَّق عالمية الإسلام بالقيم الإنسانية الكبرى.

المصادر و المراجع :

أولا:المصادر

- القرآن الكريم .

1- ابن عربي محيي الدّين، الفتوحات المكّية ، مكتب البحوت و الدّراسات، دار الفكر، لبنان، 1994.

2- ابن عربي،مجمع البَّحرين شرح ناصر بن الحسن الكيلاني، دار الآفاق العربية،القاهرة،ط1، 2007.

3- الجيلي عبد الكريم، الإنسان الكامل، ت محمد عويضة،دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1991.

4- الجيلي عبد الكريم، الكمالات الإلاهية في الصفات المحمدية، ت عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

5- مسلم، صحيح مسلم، دار صادر، بيروت.دت.

6- العجلوني إسماعيل بن محمد، كشف الخفاو مزيلالألباس، ت محمد القلاش، الرسالة، ط4، 1985.

7- القشيري عبد الكريم، الرّسالة، ت معروف مصطفى، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001.

ثانيا: المراجع

8- ماجد حمود، صورة الآخر في التراث الإسلامي،منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.

9- محمد بن علوي المالكي،مفاهيم يجب أن تُصحَّح، المكتبة العالمية، بيروت ط1، 2002.

10- محمد بن الطَّيب، وحدة الوجود في التَّصوف الإسلامي، دار الطليعة، بيروت ط2008،1.

11- محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التّراث الصُّوفي، مكتبة غريب،القاهرة .

12- محمد الرَّاشد، نظرية الحب و الاتّحاد في التَّصوف الإسلامي، صفحات للنشر، ط4، 2010.

13- عبد الرزاق نوفل، التَّصوف والطَّريق إليه، دار الكتاب العربي، بيروت.

14- عزيز الكبيطي،التَّصوف في الولايات المتَّحدة الأمريكية، دار الكتب العلمية،لبنان، ط1 ،2013.

15- خالد بن تونس، التَّصوف قلب الإسلام، دار الجيل بيروت ط1، 2005.

ثالثا:المجلَّات

16- عمارالطالبي، الأمير عبد القادر والتَّصوف، مجلة الثَّقافة، وزارة الثَّقافة، الجزائر، 1983.